

الفصل الثالث والعشرون

في إقصاء المملقين

إن حواشي الملوك مملوءة بالمملقين؛ لأن الإنسان يحب ذاته، وهو يخدع نفسه فيما يتعلق بها، ويصعب اتقاء الإصابة بداء حب الملق، فإن حاول الرجل اتقائه كان محتقرًا؛ لأنه لا يوجد لاتقاء التمليق سوى طريق واحد، وهو إفهام الناس أنه لا يسوءك أن يقال عنك الحق أمامك، فإذا استطاع كل إنسان أن يقول الحق في وجهك فقد فقدت احترامهم، فالأمير الحذر يتخذ وسيلة أخرى، وهي أن يجعل حوله رجالًا عقلاء، ويجعل لهم حق القول بالصدق فيما يسألهم عنه ليس إلا، وينبغي له حينئذ أن يسألهم عن كل شيء، وأن يعرف آراءهم ثم يمعن النظر في أقوالهم وآرائهم، وعليه أن يسلك مع هؤلاء الرجال سلوكًا يدلهم على أنهم كلما ازدادوا في قول الحق ارتفع قدرهم في نظر الأمير وعلت مكانتهم، وعليه أن لا يسمع من أحد غير هؤلاء الرجال وأن يسير في طريقه بعد التفكير دون الالتفات لما يقال، فإن من يفعل غير ذلك، إما يكون فعله بدون تبصر مدفوعًا بعامل التملق، وإما يبقى ديدنه التحول حسبما يوحى إليه من حوله، وعاقبة هذا السلوك عدم الاحترام، وسأضرب لهذا مثالًا حديثًا، فقد روى «بريه لوقا» أحد أتباع «ماكسميليان» الإمبراطور الحالي أن الإمبراطور لم يستشر أحدًا في أمر ما، ومع هذا فإنه لم يتمكن من عمل شيء حسب فكره، وذلك لعدم اتباعه الرأي الذي ذكرته، ولما كان الإمبراطور متكتمًا فهو لا يفتح أحدًا بما هو عازم عليه ولا ينتصح برأي أحد، كان إذا بدأ في التنفيذ ذاع

الأمر وعرفه الكل، فيعارضه من حوله فيعوقونه عن تنفيذ أغراضه، ونتج عن ذلك أنه ينقض اليوم ما أبرمه أمس، ولا يعلم أحد ما ينويه، ولا يمكن التعويل على أفكاره.

إن الأمير يحتاج على الدوام للشورى، وذلك عندما يريد لا عندما يريد غيره، بل يجب عليه أن لا يقبل مشورة أحد إذا لم يكن سألته ذلك، وينبغي له أن يكون كثير السؤال، حسن الاستماع، صبوراً على القول، يغضب إذا تردد أحد في قول الصدق في حضرته، ومن الخطأ الظن بأن الفضل راجع في حذر الأمير لمن حوله من الرجال، فإن الأمير لا يعرف كيف الانتفاع بالنصيحة والشورى إن لم يكن عاقلاً إلا إذا كان قد وقع في يد يافعة، وترك له تدبير شئونه، فإنه في هذه الحال قد يحكم الأمير حكماً حسناً، ولكن الحال لا تطول؛ لأن من يتصرف في شئونه يطمع في الملك ويخلعه،^(١) أما الأمير غير العاقل إذا استشار كثيرين فهو لا يستطيع في نهاية الأمر أن يستنتج لذاته رأياً واحداً يصلح العمل بمقتضاه؛ لأن كل مشير يفكر في نفعه الذاتي، فلا يستطيع الملك فهم آرائهم ولا إصلاح عيوبهم.

وهذه حال دائمة، فإن الرجال يخدعونك ما لم يضطروا للإخلاص لك؛ فينتج من هذا أن المشورة الحسنة مهما كان مصدرها يجب أن تكون راجعة إلى حذر الأمير لا أن يكون حذر الأمير راجعاً إلى النصيحة الحسنة.

(١) يراجع تاريخ تأسيس دولة صلاح الدين الأيوبي.